

المحاضرة (٦)
(مصطفى لطفي المنفلوطي)

١٨٧٦-١٩٢٤

ولد مصطفى لطفي المنفلوطي في بلدة منفلوط التابعة لمحافظة أسيوط سنة ١٨٧٦ لأسرة ليست غنية، لكنها معروفة بالحسب والشرف، تلقى تعليمه في الكتاتيب ثم التحق بالأزهر لیتم تعليمه فيه، فظل فيه عشر سنوات، والتقى بالشيخ محمد عبده، وهو يدرس تفسير القرآن وكتب عبد القاهر الجرجاني في البلاغة والإعجاز، فأعجب به ولزم دروسه وانصرف عن الأزهر وعلومه وشيوخه.

مال المنفلوطي إلى قراءة الأدب، فقرأ ابن المقفع والجاحظ وبيدع الزمان والآمدي والباقلاني ودواوين الشعراء العباسيين، وكتابات محمد عبده وآثار معاصريه المترجمة والمؤلفة، حتى كَوّن له ثقافة أدبية ممتازة وأسلوباً أدبياً عالياً.

وحين يموت محمد عبده، يحزن المنفلوطي ويأسف أسفاً شديداً ويرجع إلى بلدته منفلوط، وهناك يبدأ بتحرير المقالات وبيعها إلى جريدة "المؤيد" للشيخ علي يوسف.

يعود بعد عامين إلى القاهرة ويتصل بسعد زغلول الذي يختاره محرراً للغة العربية في وزارة المعارف حين يتولى أمرها، حتى لا يكاد تكون في منشورات الوزارة ورسائلها أخطاء لغوية ونحوية، ثم يُنقل سعد زغلول إلى وزارة العدل، فيُنقل المنفلوطي معه إليها للعمل نفسه.

ولما تُمنح مصر الدستور ويكون لها برلمان، يختاره سعد زغلول لسكرتارية البرلمان في عام ١٩٣٣، لكنه بعد فترة قصيرة يُلبي نداء ربه في ١٩٣٤، ويرثيه أحمد شوقي بقصيدة يقول فيها:

أخترت يوم الهول يوم الوداع	ونعاك في عصف الرياح الناعي
سر في لواء العبقرية وانتظم	شتى المراكب فيه والإبداع
واصعد سماء الذكر من أسبابها	وأظهر بفضل كالنهار مذاع

وعلى الجملة لم تكن حياة المنفلوطي حياة هنية، إذا كان يشقى في سبيل الحصول على ما يقيم أوده، كما عرف مرارة السجون، فقد نظم حين كان طالباً في الأزهر قصيدة في هجاء عباس، فحكم عليه بالسجن، لعلّ هذه العوامل والظروف والبؤس الذي كانت مصر تعيضه في زمن الاحتلال الإنكليزي، جعلت شخصية المنفلوطي يطغي عليها الحزن، وهو ما أعانه على كتابة أدب حزين يحفل بالبؤساء والمظلومين ويستدر الدموع من أجلهم.

والمنفلوطي في الوقت الذي أجاد فيه العربية وملك زمامها، لم يتعلم أية لغة أجنبية، لكنه عكف على المترجمات يقرأ فيها ويحاول أن يوسع ثقافته بها.

نثره:

تكن أهمية المنفلوطي في تاريخ النثر العربي الحديث في ناحيتين: أما الناحية الأولى فتتمثل في تأليف نوع خاص من القصص ليست هي مترجمة ولا مؤلفة، بل مزيج من الإثنين. كان المنفلوطي يأتي إلى الآثار القصصية المترجمة، أو يطلب إلى أصدقائه أن يترجموا له قصصاً فيكتبها بأسلوب أدبي مُصَفَّى، ويُغَيِّر فيها تغييرات واسعة ويملؤها بدروس ومواظ أخلاقية مختلفة.

فالمنفوطي كان يخلق القصة المترجمة خلقاً جديداً، يتلاءم مع ذوق القراء في عصره، فقد كان هذا الذوق يعجب **بالأعراق** في العاطفة والنظرة إلى الأسلوب لا بوصفه وسيلة للتعبير عما يشعر به الكاتب، لكن بوصفه وسيلة لإضفاء الرونق والبهاء والزينة على ما يكتبه.

والإغراق العاطفي في قصص المنفلوطي يتجه إما إلى تصوير الحب العذري الطاهر الذي يبلغ في طهارته درجة كبرى، أو يعرق في الحديث عن الإحساس الوطني، أو عن الضعفاء والبائسين والفقراء ولاسيما من النساء والأطفال، وهو لا يقدم في كل ذلك تحليلاً عميقاً ولا منطقياً للمشاعر، وإنما يحاول دفع القارئ في أسلوب تقرير خطابي إلى الحماس العاطفي لما يتحمس له، والأسلوب الذي صبغت به هذه القصص يعتمد أساساً على التكرار والترادف والتقسيم الموسيقي للجمل والسجع والاستشهاد^(١). ولعل هذا سبب **فهم** أسباب إقبال جماهير القراء على قراءة هذه القصص والتعلق بها، والقصص هي (الفضيلة) وأصلها قصة (بول فرجينى) لبرناردين دي مان بيبير، و(ماجدولين) أو (تحت ظلال الزيتون) لافونس كار، و(الشاعر) لادمونروبوستان، و(في سبيل التاج) وأصلها مسرحية لفرنسوا كوبيه، وقصص قصيرة ضمنها كتابه (العبرات).

وأما الناحية الثانية فتتمثل في مقالاته التي يضمها كتابه المعروف (النظرات) وهي مقالات نُشرت في جريدة (المؤيد) تناول فيها المنفلوطي بعض الجوانب الاجتماعية بالنقد، وشخص فيها جملة من المساوئ الاجتماعية التي استجذبت في المجتمع وخاصة بعد الاحتكاك بالحضارة الأوروبية، وعُني فيها بالأسلوب وأداء المعاني أداءً فنياً بديعاً، فاهتم باختيار الفاظه وانتخابها، ووفر لها ضروباً من الموسيقى بحيث تسيغها الآذان، وتقبل عليها، أن أسلوب هذه المقالات ليس إلا تهذيباً لأساليب أمراء البيان في عصور العرب الزاهرة بحيث تتلاءم مع حاجات الكتابة العصرية، وهو في جملته أسلوب خطابي يتوجه مباشرة إلى القارئ.

(١) تطور الرواية الحديثة في مصر، ص ١٨١.

إن المنفلوطي في (النظرات) كاتب اجتماعي قدير، يدعو إلى الفضيلة والمثل السامية بأسلوب الأديب البار والمُصلح الحكيم.

وعلى العموم يقف المنفلوطي صاحب مذهب خاص في النثر العربي الحديث ومدرسة في الأدب الحزين المُظلم المُنطوي على صور البؤس والحزن والحرمان. ومذهبه هو مذهب الأدب الإنشائي الذي يُعنى عناية كبيرة بالأسلوب، ولا يهمل في الوقت ذاته جانب المضمون، يقول المنفلوطي في مقالة تحت عنوان (اللفظ والمعنى): "لأَمْ أَرَّ فيما رأيت في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك الذي يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون منها بصفة تختلف عن صفة الآخر، فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القطعة لولا أن معانيها ساقطة مردولة: أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب، كأنما يُخيل إليهم أن الألفاظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل، يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمراً وتارة يكون خللاً ويكون حيناً صافياً وأخرى كدراً، والوعاء باقي على صورته، لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن تقول ما أجمل الشمس واقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها، كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال والمعنى بالقبح، أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه وقبحه قبحه..".

خرج المنفلوطي عن الأسلوب التقليدي، فأدخل إلى الأدب المعاني والصور بعد أن كان الزخرف هو كل شيء، وهو بذلك يُعدّ مرحلة بين المويلحي من ناحية والرافعي من ناحية أخرى.

وقد أثار أسلوبه المتميز هذا ضجة كُبرى في عصره، وتباينت مواقف معاصريه منه بين مُعجب وكاره له، فمن الذين أعجبوا به الرافعي والزيات وطه حسين في بداية حياته الثقافية. قال عنه الزيات "أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه المؤيد إشراق البشاشة، وسطه أندية الأدب سطوع العبير، ورن في أسماع الأدباء رنين النغم، ورأى القراء والأدباء في هذا الفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب". أما كارهوا هذا الأسلوب فأشهرهم إبراهيم عبد القادر المازني الذي هاجمه هجوماً عنيفاً في كتاب (الديوان في الأدب والنقد) الذي أصدره مع عباس محمود العقاد، وعدّ أسلوبه أسلوباً مُلفقاً مصطنعاً يعتمد على ضروب من التأكيد والغلو والتفضيل والتكرار والترادف ويخلو من الدقة، كما وصف أدب المنفلوطي بالضعف والنعومة والأنوثة.

هذا ويرى بعض الباحثين أن أدب المنفلوطي يُمثل خير تمثيل المرحلة الرومانسية التي شهدتها الأدب العربي في مصر منذ مطلع القرن الحالي وحتى قيام الحرب العالمية الثانية. فأدبه أدب حزين يصور البؤس والشقاء والحرمان، والمنفلوطي حين يرسم هذه الصورة الحزينة، ولا

يُحلّله تحليلًا عميقاً، ولا يُبين جذورها والأسباب الكامنة وراءها، كما يفعل الأديب الواقعي حين يعزو أسباب الفقر مثلاً إلى النظام السياسي الطبقي أو الاستعمار، بل يعرضها عرضاً سطحياً قوامه الخيال والتعميم، من هنا نجد البيئة فيها غامضة، فالزمان والمكان غير معروفين، والقدر والذهر هما المسؤولان عما يجري ويقع للإنسان، ولهذا يُلاحظ إن الإقبال على قراءة آثار المنفلوطي ضعف بعد انتهاء المرحلة الرومانسية وبدء المرحلة الواقعية في أعقاب الحرب العالمية الثانية في أدبنا الحديث حيث زاد وعي القراء وتطورت ثقافتهم، مما حدا بهم إلى البحث عن أدب واقعي يلتفت إلى تصوير الواقع، ويرسم مُشكلاته رسماً موضوعياً.

من مقالات المنفلوطي التي يتجلى فيها خصائص أسلوبه وتفكيره، مقالة عنوانها، الناشئ الصغير، يقول فيها "لي ولدٌ وحيدٌ في السابعة من عمره، لا أستطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنياً لأنني فقير، وما أنا بأسف على ذلك ولا مبتئس لأنني أرجو بفضل الله وعونه ورحمته وإحسانه أن أترك له ثروة من العقل والأدب هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته، لا على أي شيء آخر، حتى على الثروة التي يتركها أبوه، ومن نشأ هذا المنشأ وألف إلا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده، نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع إلى ما في دي غيره. ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلاً ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافع من الحاجة، وفرق بين الفني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرّها وفضولاً، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته وتقويم أود حياته.

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة، يُصارع العيش ويقبله، ويزاحم العاملين بمنكبيه، ويفكر ويتروى ويجرب، ويختبر ويُقارن الأمور بأشباهاها ونظائرها ويستنتج نتائج الأشياء من مقدمتها ويعثر مرة وينهض أخرى، ويخطئ حيناً ويصيب أحياناً، فمن لا يخطئ لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شؤون حياته.

ذلك خير له من أن يجلس في شرفة من شرف قصره مُطلاً على العاملين المجاهدين، يُمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل.

أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخاطب جميع الناس ويزوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء ويسمع بأذنيه أنات المُتألمين وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم لئنتموا في نفسه عاطفة الرفق والحنّة، ينعطف على الفقير، عطف الأخ على الأخ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم.

يتجلى هنا العناية بالأسلوب والتقنن فيه كالتكرار والأفكار الاجتماعية والتربوية والدعوة إلى
المُثل السامية.